المسارات السردية في رواية (الزيني بركات)
مقاربة سيميو - تاريخية

د / أبو بكر مرزوق
جامعة عمار ثليجي (الأغواط)

تمهيد:

إنّ رصد الوظائف السردية في العمل الروائي، تكاد تكون عملية عسيرة مضنية، بسبب المساحة التي تشتغلها الرواية قياسا بالقصة أو الحكاية؛ فالأحداث كثيرة ممتدّة، والشخصيات متعدّدة متفاعلة، والزمان متاه مسترسل، والمكان واسع متنوع، وحبكة هذه العناصر دقيقة شائكة متشابكة. وكلّ مقاربة في العمل السردي، إنما تكون ثمرتها: قدرة القبض على النص في أجزائه، وأولى مراحل هذا القبض: تحديد مقاطعه السردية، وحصرها بدقة، وفق أصغر وحداته، باتخاذ المعنى الحكائي معيارا لهذا التقطيع.

المسارات السردية في متن الزيني:

تؤطر بنية الحكي* في رواية (جمال الغيطاني) مسارات سردية لخمس شخصيات أساسية هي:

* يقوم متن الزيني على عشرة مقاطع سردية، تنتظم على الشكل الآتي:
- **بداية الهزيمة**: يتكفّل بها الرحالة الإيطالي (الراوي / الشاهد) ، ومصر في حالة اضطراب [922هـ]
- **الاعتقال**: اعتقال المحتسب (علي بن أبي الجود) ، الذي سيعوضه (الزيني بركات) ، ومعه تجري بقية الأحداث، حيث يتولّى (الحسبة) حتى الهزيمة [923 هـ] ، ليستمر بعدها محتسبا عند (ابن عثمان).
- **التعيين**: يصلنا من خلال (المرسوم الشريف) ، حيث الإعلان عن فضيحة (علي بن أبي الجود)، ثم قرار تعيين (الزيني بركات) بديلا عنه على منصب الحسبة.
- **الخطبة**: وهي التي يلقيها (الزيني) على الناس، حيث توصف أجواؤها، واستقبال الناس لها، وردود أفعالهم حيالها، وتقارير (البصاصين) فيها.
- **الزيني حاكما**: وفيها تقدم صورة على ممارسة (الزيني) لوظيفته (محتسبا)، وظهور شخصية (زكرياء بن راضي)، كبير البصاصين.
- **زكرياء نائبا**: تطور مستوى الأحداث، وخلفية (حادثة الفوانيس)، وردود أفعال الناس منه.
- **الإعدام**: من خلال (النداء)، الذي يدين (علي بن أبي الجود)، ومدى مساهمة خطبة، و(الزيني)، وتقارير (البصاصين)، ومذكرة (الرحالة الإيطالي)، الذي صادف لحظة الإعدام .
- **اللقاء**: أو تعاون (الزيني) مع (زكرياء بن راضي)، إلى إعلان الحرب على (العثمانيين).
- **الحرب/ الهزيمة**: تبدأ من خلال (مذكرة) الرحالة الإيطالي، وأخبار الخيانة، والحرب، والهزيمة، وأنباء عن جيوب المقاومة.
- **الزيني محتسبا جديدا**: تمكّن (العثمانيين) من القاهرة، ونداءات الأمان للأهالي، ورؤية (الزيني) في ركب، والمنادي يعلن عن تعيين (خاير بك / الخائن) لـ (بركات/ المغلوب على أمره) في منصب (الحسبة)، وحلول (العملة العثمانية) محلّ (العملة المملوكية). تمفصلات بنية الحدث منتزعة من تحديدات الباحث المغربي سعيد يقطين. **ينظر: تحليل الخطاب الروائي (الزمن- السرد- التبئير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.4، 2005، ص: 39.**

1- مسار السلطان المملوكي / قانصوه الغوري
2- مسار الشيخ الزاهد / أبي السعود الجارحي
3- مسار الشخصية المثقفة / سعيد الجهيني
4- مسار ناظر الحسبة /الزيني بركات
5- مسار رئيس البصاصين/ زكريا بن راضي

إلى جانب مسارات شخصيات ثانوية قد يكون مسار الرحالة الإيطالي (فياسكونتي جانتي) أبرزها، بوصفه صوت (المؤلف/ الراوي) خارج النص، المقابل لـ (سعيد الجهيني)، وهو صوت (المؤلف/ الشخصية) داخله.

ومن هنا، فسوف تضطلع هذه المقاربة السيميو - تاريخية، في (**تصوّرها**)، حين تحاول تمثّل البرنامج السردي الغريماسي، أثناء استدعاء معطيات الخطاب، من جهة، وفي (**تحليلها**)، من جهة أخرى، حينما تحاول وصل بنية "**السطح**" ببنية "**العمق**" في النص، من خلال رصد المسار السردي لشخصية (الزيني بركات) دون المسارات السردية الأخرى، التي يعجّ بها المتن الحكائي الغيطاني؛ كونه "النواة"، التي تدور في فلكها هذه المسارات؛ ذلك أنّ الاقتصار عليها قد لا يشكّل قصورا فاضحا في متابعة باقي المسارات المحتواة فيه بالأصل، ما دام مسار (الزيني بركات) في بناء هذا النص هو المشكّل لعالم هذه الرواية (لما تمثّله هذه الشخصية من رمزية متناسلة تتناص مع الماضي والراهن الذي ينشده المؤلف)، إذا ما استثنينا مسار الرحالة البندقي (فياسكونتي جانتي)، الذي لا يظهر دوره بصورة "مباشرة"، على الرغم من أنّ حضوره كان المهيمن على مسارات المتن الحكائي، بدليل حضوره: في بداية الرواية (ما قبل الهزيمة)، وفي وسطها (الحرب والهزيمة)، وفي نهايتها (ما بعد الهزيمة)، بل لعلّه محركّ كلّ المسارات الأخرى، ما دام قد اضطلعت فيه الشخصية الورقية (الرحالة الإيطالي) بدور المشاهِد المحايد، الذي يجد تلك الحرية الزئبقية بأن يتشكّل حسب متطلبات خطاب الحكي، فيكون: الشخصية، والراوي، والسارد، والمؤلف، جملة واحدة.

لقد اهتمت سميائيات (الحكي) بالمحتوى الحكائي، انطلاقا من العلامة الحكائية التي تتمفصل عن الدال، وهو (التعبير) والمدلول، وهو (المحتوى)، حسب تقسيم (همسليف) للعلامة اللسانية. غير أنّها تركز على المدلول (المحتوى) وتهمل الدال (التعبير) بوصف المحتوى (المادة الحكائية) القاسمَ المشترك بين كلّ أشكال الخطاب، فيكون هدف المقاربة السيميوطيقية: محاولة القبض على "الدلالة"، ذلك العنصر الثابت في أي عمل حكائي، بغضّ النظر عن صورة "التعبير"، الذي يتّخذه. ومن هنا، أمكن لنا أن نقابل مفهوم "المحتوى" بـمفهوم "الحكي"، ومفهوم "التعبير" بمفهوم "السرد"؛ كون (الحكي) عاما؛ له إمكانية التحقّق في اللغة، والصورة، والحركة، والإيقاع بينما (السرد) يتّصل باللغة، وبصور تمظهرها[1].

ولقد تأسّست الدراسات السردية المهتمّة بالمتن "الحكائي" في اتجاهات سردية تمايزت في ما بينها - لكن بصورة نسبية جدا - بطريقة مقاربتها لمستويات الحكي، إذ نجد:

- مستوى (الحوافز): وهو اتجاه الشكلانيين الروس (توماتشوفسكي).
- مستوى (الوظائف المحتملة): وهو اتجاه (فلادمير بروب، وكلود بريمون).

[1]- ينظر: يقطين (سعيد): السرديات والتحليل السردي (الشكل والدلالة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط.1، 2012، ص: 52، وما بعدها.

- مستوى (الوظائف/ الحوافز): وهو اتجاه (رولان بارت).
- مستوى (الفواعل أو العوامل): وهو اتجاه (غريماس، وكورتيس).

ولعلّ المستوى الأخير (مستوى العوامل)، هو منهجنا المعتمد في هذه المقاربة.

العوامل عند غريماس:

انطلق (غريماس)، في دراسته للحكي، من إسهامات (بروب)، ليؤسس نظرية "الفواعل"، أو "العوامل"، حيث "العامل" مفهوم أكثر عمومية وتجريدا من مفهوم "الشخصية"، وهو يعادل مفهوم "الوظيفة" عند بروب. واستناد إلى هذا الخطاطة السردية، سنحاول تمثّل معطياتها على مسار شخصية "الزيني" في مدوّنة (الغيطاني).

المسار السردي لناظر الحسبة (الزيني بركات):

بتطبيق البرنامج (الغريماسي)، وبمراعاة أنموذجه "العاملي"**، ورصد كيفيات الفعل فيه، نصل إلى افتراض أنّ (الموضوع القيمي) كان هو باعث (الفاعل) على (الفعل). وقد لا يتحقّق هذا الموضوع إلا وفق برنامج دقيق المسار، يسفر عن (موضوع كيفي)، تكشف فيه (الذات الفاعلة) عن كفاءتها عند من يمتلك الموضوع، أو من يسهم في تحقيقه، باعتبار المالك له (المرسل) يضمر مصلحة - أيضا - في التعاون مع الذات المستعدّة للتعاقد، والتواطؤ، والاتفاق.

إنّ كلّ سلوك يصدر عن (الزيني)، إنما يرمي إلى إقامة "مشروع"، يتوقف على امتلاك "مكْنةٍ" لدى (السلطان) المملوكي، وسوف يمثل منصب "الحِسْبة"[1] تلك المكنة، بوصفه "موضوع قيمة" في مرحلة أولى، يتحوّل إلى

** توصّل (غريماس) إلى "أنموذج عاملي"، يقوم - كنسق - على ستة عوامل، تتشكّل في ثلاثة أزواج: (المرسل، المرسل إليه)، (الذات الفاعلة، موضوع القيمة)، (المعين، المعيق). ويمثل كلّ عامل فيه وظيفته: المرسل: الدافع إلى الفعل/ المرسل إليه: المستفيد من الفعل/ الذات: القائم بالفعل/ الموضوع: الموضوع القيميّ الذي تسعى الذات إلى تحقيقه/ المعين مساعد الذات على بلوغ غايتها/ المعيق: الحائل دون نجاح الذات في تحقيق غايتها. وتتحدّد هذه الوظائف - كما يشير إلى ذلك السرديون - عبر محاور ثلاثة: محور الإبلاغ: يربط بين المرسل والمرسل إليه/ محور الرغبة: يربط بين الذات والموضوع/ محور الصراع: يربط بين المساعد والمعيق. ثم يتجسّد هذا الأنموذج العاملي - كإجراء - في خطاطة سردية تتمثل في: التحريك، والأهلية، والإنجاز، والجزاء. لمزيد من التفصيل، **ينظر: سعيد بنكراد في: مدخل إلى السيميائيات السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.2، 2003، ص: 67.**

[1]- يعرفها الإمام الماوردي بقوله: "هي أمر بالمعروف، إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر، إذا ظهر فعله"، وأركانها خمسة: 1- المحتسب: ويسمى والي الحسبة، ويشترط فيه: الإسلام، والتكليف، والعدالة، والقدرة، والعلم بما يأمر وينهى، عالما بمواطن الرفق والحزم، قليل العلاقة مع الناس للحفاظ على الهيبة. 2- المحتسب عليه: وهو التارك للمعروف، والفاعل للمنكر، ولا يشترط فيه التكليف؛ إذ يحاسب المجنون والصبي، إذا ارتكب المخالفة الشرعية. 3- المحتسب فيه: وهو فعل المنكر، وترك الفعل المعروف. 4- الاحتساب: وهو فعل القيام (فعل الفعل) بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
ومن وظائف المحتسب: مراقبة آداب العبادات (إقامة الجمعة، حرمة رمضان..) - مراقبة الأخلاق، والآداب العامة (الخمر، الفسق، الشعوذة،..) - مراقبة المكاييل والأسعار ومنع المضاربة والغش والاحتكار - مراقبة أصحاب المهن - مراقبة الأبنية والطرقات، من حيث النظافة والنظام العام..
أما شروط تغيير المنكر: - أن يكون المنكر ظاهرا، مكشوفا للمحتسب، مطلعا عليه، عالما به، دون تجسّس، ويدخل فيه: غلبة الظن وشكوى الناس. - أن يكون قائما في الحال؛ لأنّ المنكر إذا وقع، فلا احتساب على فاعله، وأوكل الأمر إلى السلطة القضائية. - أن يكون معلوما، غير مختلف فيه، حتى لا يحتجّ المحتسب عليه بجواز فعله.
ينظر: أو الحسن الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ط.1، 1989، صص: 315 – 318.

"موضوع جهة" في مرحلة ثانية. وامتلاك هذا "الموضوع الكيفي" سيكون ضروريا لتحقيق "الموضوع القيمي" المضمر عند ذات الفعل (الزيني) في مرحلة لاحقة.

أما منصب (الحِسْبة)، عند ذات الحالة (السلطان)، فهي (هبة) ممنوحة - سلفا - للذات الفاعلة، بوصفها "عقدا" ملزما، قبل أن يكون "جزاء"، حيث تحمل خصوصية تناسب السياق الذي أوجدها. إذ هي ليست فعلا "تقييميا"؛ يحمل اعترافا بجهد مبذول، أو تضحية مقدمة، كما أنّها ليست فعلا "قيميا" تخلّد به الأسماء، وتصنع به الأمجاد، وإنّما هو "عقد" بين طرفين، يحقّق مصلحة مادية في المقام الأول، ومن خلالها، تتجلى الغاية لدى "المرسل"، كدافع للفعل، وتتجلى لدى "المرسل إليه"، كغاية مستفادة منه*** .

لقد انصرفت (الهبة) من مفهومها القيمي الأخلاقي (واجب/ حق) إلى مفهوم نفعي براغماتي (سلعة / ثمن)، يكون الموهوب له فيها حاملا لكفاءة محدودة، تنحصر في القدرة المادية، وهذا وجه الانحراف في منظومة (الهبة)، وسيحرس الواهب، على نيل مزيد من المال، عن طريق بيع المناصب، ثم انتزاعها من الموهوب له، بوجه حقّ، أو بغير وجه حق، ليبيعها إلى من يستطيع أن يدفع أكثر، وهكذا تستمر عملية الابتزاز، بحرص الموهوب له، عند نيل المنصب، إلى استرجاع ما وهبه للسلطان من مال، والبحث عن مزيد من الثراء، فيتحوّل "موضوع القيمة"؛ أي: المنصب إلى "موضوع جهة"، يكون مصدرا للقوة والنفوذ والثراء[1].

بهذا المنطق البراغماتي، سنفسر منصب الحسبة في (الزيني بركات)، الذي يصف أجواءه مؤرخ العصر المملوكي (تقي الدين أحمد المقريزي)، في كتابه (تاريخ المجاعات في مصر)، حين يقول: ".. وأصل الفساد: ولاية الخطط السلطانية والمناصب العليا بالرشوة، كالوزارة، والقضاء، ونيابة الأقاليم، وولاية الحسبة، حيث لا يمكن التوصّل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل، فتخطّى، لأجل ذلك، كلّ جاهل ومفسد، وظالم، وباغ، إلى ما لم يكن يأمله .. لتوصّله بأحد حواشي السلطان، ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال"[2].

لقد كشف المتن عن برنامج "المرسل"، وهو (السلطان المملوكي)، وبرنامج "الذات الفاعلة"، وهو (المحتسب)، أين تتحقّق المصلحة المشتركة: (مزيدا من الثراء للأول، ومزيدا من النفوذ للثاني)، ولم يبق لهذين "العاملين" إلا تمثيل دوريْهما أمام الناس؛ ليصطبغ بصبغة التكليف الملزم مع الأول، والطاعة المذعنة مع الثاني.

يمكننا رصد هذه الوظيفة المزدوجة للعاملين (السلطان/ الزيني) على مستوى (الظاهر) و(الضامر) كما يأتي:

1- مع السلطان:

أ- على المستوى الظاهر: يكشف عنه (المرسوم السلطاني) مضمونه:

*** يكون المستفيد، إما ذات الحالة، وإمّا ذات الفعل، وإمّا طرفا ثالثا مضمرا (شخصا، أو قيمة).

[1] ينظر: رشيد بن مالك، مشروع قراءة سيميائية في: إغاثة الأمة بكشف الغمة. مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع. 15، 2001، ص: 260 .

[2] - تقي الدين المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمّة، تح: كرم حلمي بركات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط.1، 2007، ص: 117.

".. يتولى بركات بن موسى، حسبة القاهرة، لما تبيّن لنا .. ما فيه من فضل، وعفة، وعلوّ همّة، وقوة، وصرامة، ووفور هيبة، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه، ومراعاة الدين، كما أنّه لا يفرق، في الحق، بين الرفيع والحقير. لهذا، أنعمنا عليه بلقب "الزيني"، يقرن باسمه بقية عمره" [الزيني: 6].

ب- على المستوى الضامر: يكشف عنه (التقرير المالي) الذي أنجزه رئيس البصاصين (زكريا بن راضي) في موضوع المال الذي دخل الخزينة، ثمنا لمنصب (الحسبة)، ليذهب جزء كبير منه لحساب (السلطان الغوري)[****].

".. يعلم [رئيس البصاصين] تماما، دخول ألف دينار إلى خزائن الأمير (قاني باي)، ... أما الألفان المتبقيان من الثلاثة آلاف، فطلعا إلى القلعة.." [الزيني: 40]

2- مع الزيني بركات:

أ- على المستوى الظاهر: يكشف عنه تقرير البصاصين، فحواه: رفض الزيني لمنصب الحسبة:

".. على مرأى من الأمراء، في حضور جمع عظيم، طلب الزيني بركات، بصوت خدشه التأثر، أن يعفيَه مولاه من وظيفة "الحسبة". قال بصوت مرتجف: الحسبة، يا مولاي، ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا لله أن أجد في نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير، لا أطيق وصايتي على إنسان، أتمنى انقضاء عمري في أمن وسلام، بعيدا عن أمور الحكم والحكام، ما أريده رقدة آمنة، لا يقلقني فيها سب إنسان، أو سخط مظلوم غفلت عنه، ولم أنصفه من ظالمه.." [الزيني: 41].

ب- على المستوى الضامر: يكشف عنه تقرير البصاصين، مفاده: تمسّحُ الزيني عند أعتاب السلطان، في القلعة، طمعا في المنصب:

"أكثرُ من بصّاص، كلّ بصّاص يجهل الآخر، نقلوا إليه أخبار سعي بركات بن موسى، لحصوله على منصب الحسبة، ذهابه اليومي إلى الأمير (قاني باي) ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم، بعد العشاء، ثلاثة آلاف دينار، ليشتري بها بركات منصب الحسبة.." [الزيني: 39]

إذًا، يمكن أن نستخلص حكما أوليا، هو: أنّ "المرسل" كان حريصا على ترسيخ قيمٍ سلبية تأصّلت في المجتمع المملوكي (جمع الثروة، والتفنّن في الحصول عليها)، وحريصا على استمرارها، بوصفها ضمانة لبقائه، مع سعيه إلى إقناع أتباعه (الذوات المنجزة له) بجدواها، فارضا عليها المساندة - كرها أو طوعا - بموجب عقد مهيمن.

ومن جهة مقابلة، اتسمت "الذات الفاعلة" بالإذعان والاستجابة لرغبة (المرسل) الظاهرة الضامرة، وهو: وجوب القيام بالمهمّة المكلّف بها (الحفاظ على النظام؛ أي: على العرش).

**** مصادر دخل السلطان متعددة، فبالإضافة إلى إقطاعه، الذي يُعرف بـ "الخاص السلطاني"، حيث يختار من الأراضي أخصبها، ومن المكوس أربحها، فإنّه كان يدخل الضرائب العقارية، وضرائب المحصولات الزراعية، ومن شراء بعض السلع، وبيعها قسرا، وبسعر مرتفع، ومن زيارات السلطان للأمراء الكبار في إقطاعاتهم، الذين كانوا ملزمين بتقديم مبالغ من المال والهدايا. **ينظر: انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية، دار الحداثة، بيروت، ط.2، 1982، ص: 106.**

غير أنّ نجاح (الزيني) في هذا الاختبار، وكسب تأييد (السلطان)، قد لا يعني: فتح الطريق أمام تحقيق "موضوع القيمة"، بل عليه أن يضمن أمرين أساسيين، هما أصل الصراع في برنامجه، ويتمثلان في: (حشد المساعد، وإسكات المعارض)، وعلى هذا الأساس، لا بدّ من برنامج ثانوي "استعمالي" موازٍ للبرنامج الأساس، وسيكون أطرافه: الولي الصالح (أبو السعود الجارحي)[*****]، كقوة معنوية (روحية) برمزيها الدينيين: الجامع الأزهر، وزاوية (كوم الجارح)[******]، ورئيس البصاصين (زكريا بن راضي)، كقوة مادية (قمعية)، بجهازها الاستخباراتي (جهاز البصاصة).

1- مع أبي السعود الجارحي:

لقد كان (الأزهر) المؤسسة الروحية القوية في مصر، والصوت المسموع، والمؤثر في التوجّه الفكري، والقرار السياسي؛ فلا يمكن للعمل السياسي أن يتمّ، ما لم يباركه الأزهر، وعلى النظام أن يغازله، ويخطب ودّه، ويحسب حسابه.

إنّ (حضور الأزهر) القوي، وفق الفترة التي يعرض لها المتن، يتقاطع مع (الحضور الكنسي)، والهيمنة (البابوية) في أوربا؛ فقد أطّرت الكنيسة، في روما، السياسة الخارجية الأوربية، خاصة، مع أحداث كبرى شهدها العصر (الخطر العثماني على أوربا، القوة المملوكية في الشام، العلاقات التجارية الأوربية المشرقية، وحساسيتها..).

كان لزاما على (الزيني) أن يحدّد مساره مع (الأزهر)، وذلك بكسب حركة التأييد، والدعاية له. ويبدو أنّ (جهاز البصاصة) قد نجح في الدعاية، وتوجيه الرأي العام (السلبي)، وبلورة صورة الزيني - المجهولة عند العامة - لدرجة العجائبية والأسطورية.

"فوق منبر الأزهر القديم وقف، المسجد يفيض بالخلق من كلّ صنف، زعقوا، فارتجت الأعمدة، وكادت المآذن تميل، بدا، وكأنّ كلّ قوّة ستعجز عن إسكاتهم، لكن الزيني رفع يده اليمنى، مفرودة الأصابع (يد عادية، أصابع خمس) وكأن قوة سحرية تسيل منها، طاف الصمت، مغلقا أفواه الناس، قيل - فيما بعد - إنّه أوتي مقدرة على جعل الخلق يصمتون، ولو أراد أن يذرفوا الدموع لفعل.." [الزيني: 62]

لقد كان السند الديني هو العامل المهمّ في استمالة عواطف الناس، وكسب مشاعرهم. وعلى (الزيني) أن يستغل مباركة (أبي السعود الجارحي) له في توليه منصب الحسبة،

"إنّه لم يكن يقبل (الحسبة) أبدا .. لولا الشيخ العارف بالأصول، والفروع، الزاهد الناسك، ولي الله، (أبو السعود)" [الزيني: 62].

***** هو أبو السعود الجارحي، صوفي ذو أحوال وكرامات، قدوة في علمه ودينه، فريد في عصره وحينه، كان له قبول تام عند الأكابر، يقف الأمراء بين يديه، فلا يأذن لهم بالقعود، وحملوا في زاويته الحجر والتراب، كان كثير المجاهدة، يتكلم بالخواطر. مات سنة 933 هـ . **ينظر: زين الدين المنّاوي: الكواكب الدريّة في تراجم السادة الصوفية، تح: محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، ط. 1، 1999، 3: 337.**

****** الكوم: بفتح أوله وضمّه، أصله: الرمل المشرف، وهو اسم لمواضع في مصر. ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط.2، 1995، 4: 495. وكوم الجارح هي: زاوية الولي الصالح، أبي السعود الجارحي، بالقاهرة.

2- مع زكريا بن راضي:

لقد ضمن (الزيني) عاملا "مساعدا" قويا، لكن معركته الكبرى ستكون مع رئيس جهاز البصاصة (زكريا)، الذي لا يرى في (الزيني) إلا صورة لمن كان قبله، ومن سيأتي بعده، في طلبهم النفوذ، والتماسهم الجاه بأي وسيلة. إنّ غريزة (البصاصة) عند (زكريا)، تجعله مضطلعا بالأمور؛ يرسل عيونه في كلّ مكان، ينتزع الأخبار والأسرار، لا يستثني أحدا، إنّه "المعارض" الذي يضع العوائق، ليحول بين (الفاعل) و(موضوعه)، وعلى (الفاعل) أن يدخل حلبة صراعه، فيسعى إلى اكتساب هذا "المعارض"، والمصلحة كلّ المصلحة في ذلك، أو يسعى إلى إبعاده، وذلك شرّ لا بدّ منه.

إذًا، فمعضلة الذات الفاعلة (الزيني) كانت في العامل المعارض (زكريا بن راضي)، وهذا الأخير، لم يكن بالمعارض البسيط، إنّه عقبة كأْداء أمام كلّ "فعل" إنجازيّ يصدر عن (الذات الفاعلة)، المدعمة بجهاز بصاصة فعّال، وهو الوحيد، في مصر، العالم بما يجري، كان يقول - دائما - لأعوانه المقربين:

"عندما أريد الذهاب إلى أي بلدة، في مصر، لا أبتعد عن بيتي، أجيء إلى هنا، لكلّ بلدة قسم، كلّ قرية، أيّ كوم أو عزبة، أيّ قطاع في بر مصر، من أدناها إلى أقصاها.. كلّ دفتر يحوي أصناف المكان، ما اشتهر به، ثم أهمّ الأشخاص فيه، كافة ما يتوافر عنهم، القسم الخاص بالقاهرة يحوي حاراتها وخططها وجوامعها، رجالها وشيوخها ونساءها وغلمانها وجواريها، وخاناتها وطوائفها، ومغنياتها وملاهيها، وأسماء الأروام المقيمين والقادمين والراحلين، والإفرنج العابرين ومن يتّصل بهم، ويتردّد عليهم من المصريين، كلّ أمر كبير أو صغير هنا، أما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق، فكلّ ما يتعلّق بهم: أمزجتُهم وعاداتهم، مشاربهم، أهواؤهم، ما مرّ بهم من أفراح وأتراح، كلّها هنا.." [الزيني: 35، 36]

مع هذه (المعرفة) الدقيقة، التي سخر لها زكريا آلاف البصاصين، الذين يسمع بهم ويرى، يملك "القدرة على الفعل": فهو السجّان والجلاّد الذي ملك كلّ أدوات القمع، وملك أشدّ الزبانية، إنه..

"لا يرى ما يقوم به رجاله، لكنه يعرف ما يجري.. هوايته القديمة: رؤية اللحظات الأولى في وجه إنسان أحيط عمره بقيود. يقول الشهاب الأعظم [زكريا]: يجب أن تكون الخطوة التي يعبر فيها الإنسان عتبة أبوابنا حدا فاصلا بين عهدين، عندها ينقسم العمر الواحد قسمين، بحيث يخرج الإنسان من هنا؛ يحمل نفس الاسم، لكنه في حقيقة الأمر شخص آخر" [الزيني: 216].

إنّ هذه "القدرة على المعرفة" وهذه "القدرة على الفعل"، قد رسّخت في نفسه غريزة الاستبداد والهيمنة، إنّه يحتكر أقوى جهاز في الدولة، ويستطيع فعل ما يريد. تكشفت أمامه حجب السلطنة، ابتداء من رأس هرمها (السلطان) إلى قاعدته (العامة)، لا بدّ أن تخضع كلّ حركة إلى تقديره وترتيبه. وها هو المحتسب الجديد (الزيني بركات) يريد أن يخلّ بهذا النظام، ويرسم لنفسه نظاما خاصا.

إنّ "الاختبار الترشيحي"، الذي كان بين الزيني والسلطان، قد خُولّ له حرية الفعل، وهذا مكمن الخطر عند زكريا:

"إنّ السلطان يوافق الزيني على كلّ كبيرة وصغيرة، الزيني يطلع إلى السلطان، كلّ ليلة يخلو به مقدار ساعة..

ربما تدبّر له الملاعيب.. لا بدّ من حسم أمر الزيني، وإلاّ، أصبح تاريخ البصاصين كلّه مهدّدا" [الزيني:91، 92].

ستتحوّل "العلاقة العاملية" عند الزيني، وزكريا من: "علاقة ذات بمعارض" مع (الزيني)، و"علاقة معارض بذات"، مع (زكريا)، إلى "علاقة ذات بموضوع كيفي"، مع (الأول)، و"علاقة ذات بموضوع قيمي" مع (الثاني). ويمكن رصد "ترسيمة عاملية" لهما على الشكل الآتي:

1- مع الزيني بركات:

العامل	الغاية
المرسل	بناء مجد شخصي
المرسل إليه	الزيني
الذات	الزيني
الموضوع	احتواء زكريا بن راضي

2- مع زكريا بن راضي:

العامل	الغاية
المرسل	المحافظة على مجد شخصي
المرسل إليه	زكريا
الذات	زكريا
الموضوع	احتواء الزيني بركات

ترسيمة الزيني: (احتواء زكريا بن راضي)

يعدّ عامل "الرغبة" في احتواء (زكريا)، مرحلةً أساسية عند (الزيني) للوصول إلى "موضوعه الكيفي"؛ فقد ملك (زكريا) مفاتيح "الفعل" بجهاز بصاصته، وصلاحيته الواسعة، ومن السهولة بمكان أن تنجز أفعالٌ شخصيةٌ تحت غطائها، لكن هذه السلطة المخوّلة غير مطلقة دائما، فـ "المعارضة" حاضرة على مستوى الحاكم (السلطان الغوري)، وعلى مستوى المحكوم (عامة الشعب)، ولا يخلو (زكريا)، وهو "المعارض/ الموضوع الكيفي" من نقاط ضعف، ربما قد تقف حائلا أمام إنجاز برنامجه "الهيمنة والتسلط"، وعلى الزيني، وهو يحيك خيوط "برنامجه الاحتوائي"، أن يستغل هذه الهنات والهفوات؛ فتكون عناصر مساومة أو ضغط على (زكريا).

لقد ارتكب رئيس البصاصين (فعلا سالبا)، بتدخّلِه في حياة السلطان الشخصية، واختطافه غلامه (شعبان). وربما وُجد مبرّرٌ لهذا الاختطاف، إذ وظيفة البصاصة، قد تحمله على أن يعرف كلّ ما يتعلق بأمر الحكم، أو يهدّد أمنه،

وأن يعرف أدق دقائقه، ولو تعلّق الأمر بحياة السلطان الخاصة، عندئذ، لا يستثنى أمر (شعبان) من ذلك..

"شعبان غلام السلطان المقرّب. من شهور، اختفى، لم يدر به مخلوق .. عندما قرّر زكريا اختطافه، لم يأمره أحد بذلك .. قرّر أن يصل إلى جوهر الصلة بين شعبان والغوري.." [الزيني: 32].

لكن الخطأ قد حدث، حين رأى (شعبان)، وتجاوز معه الحدود، وكان لزاما أن يختفي كلّ دليل إدانة قد يستغلّ ضده.

"يقرّر خنق شعبان، ودفنه حيا .. بنفسه راقب الخنق، مبروك وحده قام بالعملية .. ربما جاءوا، واختطفوا شعبان حيا، يطلعون به إلى السلطان .. سيأمر السلطان بشيّه حيّا على نار بطيئة، من قبلُ، شوى ثلاثة رجال على السفود، قيل، مجرد القول: أنّهم شوهدوا في صحبة الغلام، لم ينتظر ليستقصي.." [الزيني: 32 - 35]

إنّ "الذات الفاعلة"، وهي (الزيني)، تريد تحقيق برنامج "الكفاءة" أمام المرسل (السلطان)، بتوفير ما يحتاجه من أموال. فأمّا المال، فالمحتسب السابق، (علي بن أبي الجود)، المغضوب عليه، المحبوس عنده، هو مصدره الأساس، ورئيس البصاصين (زكريا بن راضي) هو وسيلة انتزاعه بامتياز، ويمكن لـ (الزيني) أن يحقّق (برنامجا كيفيا) مزدوجا، يقوم على: (كسب ثقة السلطان؛ بمنحه المال المطلوب، واحتواء زكريا بالضغط والمساومة)

".. حين التقى الزيني زكريا، دخل "مباشرة في غرضه، قال: بدون لفّ أو دوران، وباختصار شديد: أريد أن أعرف - بالضبط - أين أخفى على بن أبي الجود أمواله.. أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي، كما أعرف أنا قبر شعبان.." [الزيني: 145، 146].

لقد كانت هذه المساومة لحظة حاسمة لاحتواء (زكريا)، ومعها يتحقّق "الموضوع الكيفي"، لتبدأ مرحلة جديدة من عمر الحكي، تضطلع فيها الذات (الزيني)، المالكة لقيم معرفية (أدلة إدانة زكريا)، باستغلال هذه الملفوظات "ملفوظات الحالة"، وتحويلها إلى "ملفوظات فعل"، بحيث تحقّق:

- صيغة اتصال الذات مع الموضوع الكيفي، فتغدو:

(ذ1 [فصل] م) [رمز استلزام] (ذ1 [وصل] م)[1]

- صيغة تحوّل الذات من: ذات حالة إلى ذات فعل، فتغدو:

(ذ1 = ذ2 [فصل] م) [رمز استلزام] (ذ2 = ذ2 [وصل] م)

وسوف يستغل نقطتي ضعف زكريا (قتله غلام السلطان، وسوء علاقة العامة به) في إبرام (عقد) معه،

[1] - يرمز بالرمز ذ1 = ذات الحالة ، وذ2 = ذات الفعل .

يستوجب منه (التعاون) مقابل أن يتولّى الزيني (تبييض صورته عند العامة).

يمكن رصد عملية الفعل (التبييض) في كيفية فعلٍ ثلاثية المراحل:

- مرحلة الافتراض = تحويل صورة زكريا
- مرحلة التحيين = الدعاية له عند العامة
- مرحلة التحقيق = انتظار ردة فعل العامة

وعلى أساس هذه الكيفيات (كيفيات الفعل)، يمكن تشكيل هذه الترسيمة السردية:

العامل	الوظيفة
المرسل	تبييض زكريا
المرسل إليه	الزيني/ زكريا/ العامة
الذات	الزيني بركات
الموضوع	تزكية زكريا
المعين	سلوكيات يصطنعها الزيني أمام الناس
المعيق	العامة/ أبو السعود/ سعيد الجهيني

وعلى أساسها، يمكن تحديد رتب (**كيفيات الفعل**):

1- مرحلة الافتراض: لقد كانت (الرغبة في الفعل)، بل، و(وجوب الفعل) الدافع الرئيس عند الذات الفاعلة (الزيني) في تحريك الموضوع، وتنفيذ برنامجه الهادف إلى احتواء كبير البصاصين، وكسبه إلى جانبه، وذلك بإقناع العامة في (أهليته لمنصب نائب المحتسب).

نشير إلى أن "الموضوع الكيفي" ليس فعلا تنجزه "الذات الفاعلة"؛ لإقناع "المرسل إليه" بـ "الموضوع"، وهو هنا (العامة)، في هذه المرحلة، وإنّما هو سلوك (الشخصية/ الموضوع)، التي عليها أن تكون مقنعة في نفسها، وبنفسها، فتساعد "الذات الفاعلة" في مخططها.

إنّ المرجعية التي تحملها ذاكرة الشعب للموضوع (زكريا) سالبة جدا، فتاريخ الرجل أسود، حافل بالمظالم والاستبداد

" زكريا يحبس خلق الله، زكريا لديه سجن تحت بيته، ترى كم من الأرواح أزهق؟ أي الطرق سلك في تعذيب أجساد خلقها الله.. كلّ من أمسكهم زكريا مساكين، أرواحهم بريئة، لم تجن ذنبا، لم يتآمر أصحابها، لم يسرق بعضهم، لم يقل سبابا في طريق عام ضد أمير أو كبير.." [الزيني: 35].

ثم إنّ صورة (زكريا) عند الشيخ العارف بالله (أبي السعود الجارحي) كريهة أيضا؛ إنّه -كما قال فيه - قدر الله في عباده، إنّه من علامات الساعة.

".. لا بدّ من بقائه فوق الدنيا ممثلا لإبليس حتى يتعذب الخلق أضعافا مضاعفة.." [الزيني: 79].

وأمام "مرسل إليه" محتقن (شعب بلغ به القهر والقمع مبلغه)، يسهل على الذات الفاعلة (الزيني) قلب صورة الموضوع (زكريا) كرها أو طوعا؛ فجهاز الدعاية قادر على قلب الحقائق، وضجّة إعلامية (مسْجِديّة) كفيلة بذلك، إذا ما حيكت خيوطاتها، وأحكمت بلاغتها.

لقد أدرك (الزيني) ضرورة تعاون (زكريا) معه؛ إنّهما - معا - يشكلان قوة لا تقهر، حين تلتقي (الحسبة) بـ (البصاصة)، فتأمن العامة من الجوع، وتنعم بالأمن، كما أنّ (الزيني) يملك القدرة التأثيرية في الناس، ويملك (زكريا) القدرة القمعية عليهم، وما سياسة الناس إلا جمع بين شدة ولين، ومراوحة بين رغبة ورهبة. كما أن مصلحة الرجلين الخاصة تفرض عليهما التعاون؛ ذلك أنّ الظرف (الأمني/ الاقتصادي) حرج؛ إذِ الكلّ يعلم: **"ما ينويه ابن عثمان، ومهما طال الزمن، فالحرب واقعة لا محالة، الشرق لا يحتمل دولة بني عثمان، ودولة المماليك في مصر.."** [الزيني: 147]، واللبيب من يتخذ موقعا له بين هؤلاء.

بهذا التجاذب بين الرجلين وقدرتيهما، أمكن لنا تقدير هذا المسار:

العامل	قوة فعل موجبة	قوة فعل سالبة
الزيني (الحسبة)	أمن من جوع	قوة تأثير
زكريا (البصاصة)	أمن من خوف	قوة قمع

من خلال هذا الجدول، تتضح لنا دوافع المرسل إليه، ومصلحته: (مصر/ الزيني/ زكريا)

- مصلحة مصر: إذ بأمنها يتحقّق أمن من فيها
- مصلحة الزيني: بمزيد من المناصب والمكاسب
- مصلحة زكريا: بمزيد من الهيمنة والنفوذ

وهكذا، كان لكيفية الافتراض: "رغبة الذات في الفعل"، و"إرادتها في الفعل"، ثم "وجوب الفعل" بلورة لـ "رغبة المرسل"[1] في تحقيق "موضوع القيمة"، ومعه، يتظهر دور العامل (الزيني) في أشكال مختلفة:

- عامل مضمر: جسده (المرسل)، مع وجوب تحقيق (الموضوع القيمي)
- عامل مقتدر: من خلال كفاءتي: "القدرة"، و"المعرفة"، التي تمتّع بها الزيني، كمحتسب مؤهل مزكّى من جهة السلطة (السلطان).
- عامل محقّق: من خلال هيمنة (الزيني) على برنامجه الكيفي (زكريا)

[1] - يمثل الزيني بركات المرسل والذات الفاعلة معا .

وسوف تسعى "الذات الفاعلة"، في مرحلة لاحقة، إلى (فعل الفعل)، أي: إلى تزكية (زكريا)، حين ينجح في تحقيق (الإقناع) بتعزيز أهليته عند المرسل إليه (العامة) من خلال كيفية التحيين.

2- مرحلة التحيين: تكتسي هذه المرحلة أهمية بالغة في مسار الفعل السردي؛ كونها تمثّل طريقة تجسيد (عنصر- الرغبة)، وهو: تزكية (الزيني) لـ (زكريا) عند العامة. والتحيين، يستند إلى قيمتين:

- **معرفة الفعل:** باعتبارها "حصيلة تراكم تجارب وخبرات على امتداد المحور الزمني، ومنها تستمد القدرة على (برمجة) عمليات التنفيذ الضرورية".
- **قدرة على الفعل:** باعتبارها "مجموعة القدرات، والاستعدادات التي تمتلكها الذات الفاعلة، فتمكّنها من الأداء والفعل"[1].

تشكل هاتان القيمتان "المعرفة والقدرة" كينونة الفعل، التي يمكن أن تجتمع عند "العامل/ الفاعل"، كما يمكن أن يعدم إحداهما، بحيث يمتلك الفاعل "معرفة الفعل"، ولا يملك "القدرة على الفعل"، أو العكس. فأين موقع الذات الفاعلة (الزيني بركات) من ذلك ؟

إنّ "الكفاءة المعرفية"، التي رسمها (المتن) للزيني بركات، تقدم لنا أنموذجا بشريا غامضا، ذلك أنّها:

- في دفاتر رئيس المخابرات (زكريا بن راضي) لا تتجاوز أربعة سطور: **"بركات بن موسى، له مقدرة على الاطلاع على النجوم "** [الزيني: 41].

- وهي، عند (السلطان المملوكي)، مجهولة أيضا، بحيث يُكتفى فيها بما بلّغه عنه: **".. صاحب فضل، وعفة، وأمانة، وعلو همة، وقوة، وصرامة، ووفور هيبة، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه"** [الزيني: 30]، لذلك استأهل منصب "الحسبة".

- وهو عند (العامة)، مجهول أيضا، غير أنهم كانوا يزكّونه بدافع **الإشاعات** [الزيني: 49]، إذ له قوة سحرية، وتأثير عجيب إذا ما خطب" [الزيني: 62].

فلا جرم - عندئذ - أن تعكِس هذه الصورة (الزينية) شخصية تملك "الكفاءة المعرفية" لنجاح المرحلة "التحيينية". ولكن: كيف هي "قدرة الفعل" عند الزيني ؟

إنّ الزيني لا يملك قدرة (زكريا بن راضي)، صاحب (جهاز البصاصة)، الدقيق التنظيم، المالك للمعلومة "كفاءة المعرفة"، المشرف على بصاصين مدربين "كفاءة القدرة على الفعل"، فأين قدرة (الزيني) أمام قدرة (زكريا)؟. لعل (ذكاء) الزيني، و(دهاءه)، هو البديل الحقيقي، والفعال لهذه "القدرة الفعلية"، ذلك أنّ (زكريا)، بجهازه الاستخباري، لم يستطع الوصول إلى حقيقة (الزيني/ اللغز).

لقد ملك (الزيني) كفاءة عجيبة، حين ادّعى وجود جهاز بصاصة (سريّ)، أعجز (زكريا) كشفه. لقد كان جهازا

[1] - رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائيات السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص: 22.

وهميا دوخ رئيس البصاصين ورجاله، فانتزع شهادة من (زكريا) بعبقريته المنقطعة النظير، واعترافا بـ "قدرة فعل" عالية، وإنْ كانت معنوية. وهنا يتحقّق العاملان التحييزيان: "معرفة الفعل"، "والقدرة على الفعل".

لقد اقتضى برنامج (الزيني) التحييزي مرحليّة في إنجاز فعل (التبييض):

- مرحلة أولى: ينجزها (الزيني) مع (زكريا).
- مرحلة ثانية : ينجزها (الزيني) مع (العامة).

والمرحلة الثانية (البعدية) هي نتيجة المرحلة الأولى (القبلية)، وثمرةٌ لها.

كانت رغبة الذات (الزيني) هي: امتلاك الموضوع الكيفي (تحسين صورة زكريا لدى العامة)، ولأجل إنجاز هذا الفعل، كان لزاما أن تصطنع الذات الفاعلة "برنامجا تأهيليا"، ليس لإثبات كفاءتها أمام الموضوع، الذي تضطلع به "الذات/ الموضوع"، ولكن لتثبت "كفاءة الموضوع"، وهو (زكريا)، أمام "المرسل إليه"، وهو العامة، المتحقّق في (الموضوع / الذات)، وهذا "البرنامج الاستعمالي" هو الذي يتوقّف عليه النجاح في المسعى أو الإخفاق فيه.

لقد بدأت رحلة التمكين لـ (زكريا)، بتعاقد (الزيني) معه، وذلك بـ:

إيهام زكريا للعامة: حيث يصطنع (زكريا) مواقف، قصد التحايل على العامة، وإيهامهم، وتضليلهم بصورة عنه مغايرة للصورة التي يحملونها له (إظهار التقوى والصلاح، ردّ المظالم، العدالة في الناس..)، لعلّها تشفع له عندهم. وسوف تغدو العامة "موضوعا" لزكريا "الذات"، التي ستسعى إلى تحقيق الترسيمة التالية:

(ذ [فصل] م) [رمز استلزام موجب] (ذ [وصل] م)

وها هو (السارد) يعرض علينا مشهدا من مشاهد هذا الاصطناع:

"ضحك الزيني: "عال .. عال "، وأخبار الصلاة ؟. ابتسم زكريا: "يدي قبلة الشفاه". تزايد ضحك الزيني: اسمع يا زكريا، غدا، اركب حصانك، دع رجلا من رجالك يرتدي ملابس فلاح، وآخر من رجالك في ملابس مملوك، ليضرب الثاني الأول ضربا فظيعا، وطبعا، يصادف عبور موكبك. هنا، ترجّل أنت، انصف الفلاح، واقبض على المملوك، أكثر من أشباه هذا.." [الزيني: 194].

شفاعة الزيني لزكريا عند العامة: يستغل (الزيني) حضوره الموجب في قلوب العامة، لتحويل صورة (زكريا) القاتمة الكريهة، فيغدو زكريا (موضوعا)، والعامة (ذاتا)، وستكون الوظيفة السردية: تحويل الموضوع من:

(م [فصل] ذ) [رمز استلزام موجب] (م [وصل] ذ)

وحتى يصل (الزيني) إلى مقصده، في استمالة العامة لتقبل (زكريا)، لا بدّ له من تدرّج في الفعل، وضمان تواصل ناجح مع (العامة)، تحقّقها (سنن) تضمن بلوغ الرسالة، وتؤدي "الوظيفة الانتباهية". هذه الوظيفة ستكشف عنها الملفوظات الآتية:

- **".. حديثه عامي اللهجة، وهذا مخالف للأصول على حدّ علمي.."** [الزيني: 200].
- **".. بدا [صوته] لينا.."** [الزيني: 200].
- **".. فوق المنبر، وقف ابن موسى صامتا .. رأسه مطرق، يداه تضمّان طرف عباءته السوداء.."** [الزيني: 202].
- **".. علا صوت ابن موسى، رأيته يضرب صدره بيده.."** [الزيني: 202].
- **".. لا يتحدّث ابن موسى إلاّ بعد هدوء الضجة.."** [الزيني: 203].
- **".. تزايد إعجابي بابن موسى، عندما عاد إلى إطراقه، لا يتكلّم إلا إذا ساد الهدوء.." [الزيني: 204].**

ثم كان عليه تزكية نفسه أمامهم، من أطماع المنصب، حتى يضمن ثقتهم، ومن ثم، ضمان استجابة سريعة ناجحة، وسيكشف عن ذلك الملفوظ الآتي:

- **".. كانت الفرصة مفتوحة أمامه، ينهب الأموال.. كما فعل الأولون، وكما فعل الآخرون، لكنه أبى، خوفا منه - هو وحده - (يقصد الله)، وها هو لا يمتلك أكثر ممّا يقيم أوده.."** [الزيني: 200].

ولا يجد (الزيني) حرجا من أن يذكر بعض الذي فعله لأجل (العامة)، قصد التخفيف من معاناتهم، دون أن يلغي عطف (السلطان) على (الرعية)، وعدله فيهم - لا بدّ أن يحذر (الزيني) من كلّ تصريح أمام (العامة)، حتى لا يحمل عليه، أو يؤول تأويلا ماكرا لدى (السلطان)، يكشف عن ذلك الملفوظ الآتي:

".. لقد ألغى العديد من الضرائب. وهنا تهلّل صوت الزيني، استمع الناس إلى سرّ من أسرار السلطنة، لا يجرؤ مخلوق على قوله، كان السلطان ينوي فرض ضريبة جديدة (هنا علا صياح الناس، حماك يا الله .. حماك يا الله) لقد شاءت رحمة السلطان، وعدله، أن يستجيب لشفاعة ابن موسى، فيلغي ما عزم عليه (حماك يا الله .. حماك يا الله).." [الزيني: 201].

بعد هذه الحوافز، يمكن لـ (الزيني) أن يطرح موضوع (التزكية) بعدما اطمأنّ إلى تحقيق عنصر (التأثير والاستمالة)؛ فـ (العامة) مهيّأة لأن تستجيب إلى ما يريد.

إنّ صورة (الزيني) عند (العامة) مثالية، بل أسطورية: **".. ابن موسى لا يأتي مرتين في زمن واحد.."** [الزيني: 199].

لقد نقل (السارد) على لسان الرحالة البندقي (فياسكونتي جانتي)، الذي شهد خطبة (الزيني) في الناس، صورة لهذه المنزلة،

".. أي أمر محيّر هذا، لم أر مثله في أيّ البلاد، الناس تحبّ شخصا بعينه، كل لسان يحمد سيرته، يثني عليه.. وفي الوقت نفسه، رهبة خفية من الزيني، لا تبدو على وجه بشر، إنّما تُرى بعيون خفية.. أخبرني خادمي بذبح ثلاثة شبان.. بسبب ذمّهم ابن موسى؛ ذبحهم العامة بأيديهم، عندما قال الشبان: "ما يفعله الزيني مشكوك فيه.." [الزيني: 199- 200].

وسوف يصطنع (الزيني) موقفا آخر، باتفاق مع (زكريا)، يضحي فيه بأحد أعوان (جهاز البصاصة)، ممن كثر

شاكوهم، وقلّ شاكروهم. إنّه (أبو الخير المرافع)..

".. بصاص قديم، عمل زمنا في أقصى الصعيد.. منذ أيام، وصل القاهرة. يقول متباهيا: "في حياتي خرّبت عشرات البيوت، هدّمت عائلات ما ظن أحد قط أنّها ستهدم.." [الزيني: 194].

إنّ هذا التباهي المقزّز، سيكون بمثابة شهادة تقتضي- "إعدامه"، ولا بدّ أن تجد كلمات (الزيني) طريقها إلى قلوب العامة، حين يعرض عليهم هذه الصورة المقزّزة المريضة الشاذة. قال الزيني:

".. هذا الرجل - سامحه الله - أبو الخير المرافع، الذي خرّب في عام واحد ثلاثا وثلاثين أسرة.. تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينار من الزيني، بعد أن يتسلّمه، ويجري عليه العذاب.. من أوضح له حقيقة أبي الخير المرافع؟ إنّه نائبه المخلص الأمين، نائبه الذي يغار على العدل كما يغار على أهل بيته (أشار بيده إلى أول الصفوف)، إنّه زكريا بن راضي.. تطاولت أعناق الناس ليلمحوا زكريا، لكنهم لم يستطيعوا، فزعقوا (أبقى الله زكريا.. أبقى الله زكريا..).. (لعن الله أبو الخير.. لعن الله أبو الخير..).." [الزيني: 201، 202].

وتبقى هذه الصيحة المبتذلة، واللعنة المتشفية علامة على نجاح (الزيني) النسبي في مسعاه، ومن ثم، نجاح مشروع (الزيني/ زكريا)، في مرحلته "التحييبنية".

3- مرحلة التحقيق: إنّ تحقيق ذات الفعل (الزيني) للفعل، قد قامت على استغلال كفايتها، من خلال منزلتها لدى (العامة)، ومع هذا الحضور لـ "الذات الفاعلة"، تتراجع الأطراف "المساعدة"، وتظهر الأطراف "المضادة" لعنصر- "الرغبة".

إنّ ما يمكن استنتاجه، من هذه المرحلة (المرحلة التحقيقية)، يجمل في الآتي:

- إنّ (الزيني) كان طرفا أساسا في هذا البرنامج، حيث اضطلع بمهمتي: الإقناع والتأثير.
- إنّ موضوع (زكريا) في هذا البرنامج لم يكن مقنعا لدى المرسل إليه (العامة)، على الرغم من تلك الملفوظات الدالة على مساندة الذات الفاعلة (الزيني)، وتأييدها، بسبب شعوريْ: الرغبة والرهبة من (الزيني)، و(زكريا).
- وجود مساعد[1]، هو أقرب إلى المعارض، وهو (العامة)، بولائها الغامض لـ (الزيني)، وشعورها الكريه نحو (زكريا).
- وجود "معارض" يمثّله العارف بالله، الشيخ (أبو السعود الجارحي)، والطالب الأزهري (سعيد الجهيني)، ومجاورو الأزهر من طلبة العلم.

".. في لحظة بعينها، قبل تهليل الناس، انطلقت صيحة من أقصى المسجد، انطلقت في هفوة صمت.. تخلّلها حديث الزيني.. كذّاب.." [الزيني: 204].

إنّه الصوت "المعارض"، الذي أدرك (الزيني)، منذ البداية، خطره، فحرص على كتم أنفاسه.. إنّه تابع الشيخ (أبي السعود الجارحي)، الطالب الأزهري (سعيد الجهيني).

[1] - يتمثل المساعد - هنا - في المرسل إليه (العامة)؛ بوصفه المستفيد من كلّ معارضة.

ومن أجل احتواء هذه الكيفيات الثلاث (الافتراض/ التحيين/ التحقيق)، يمكن لنا أن نختم بهذه الترسيمة العاملية:

العامل	الوظيفة
المرسل	تحقيق اتفاق (تعاقد الزيني مع زكريا)
المرسل إليه	الزيني وزكريا
الذات	الزيني
الموضوع	تبيض زكريا (تزكيته عند العامة)
المعين	أحداث مصطنعة من زكريا والزيني
المعيق	الأزهر (أبو السعود، سعيد الجهيني، مجاورو الأزهر)